أنسنة الحيوان في الشعر الجاهلي

ماهر أحمد المبيضين (*)
عماد عبدالوهاب الضمور(*)

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الاستعانة بالدراسات الأسلوبية الحديثة للكشف عن مظاهر أنسنة الحيوان في الشعر الجاهلي، ودور هذه الأنسنة في الكشف عن طبيعة هذا الشعر الذي ما زال قابلاً للتلقي والتأويل، فكما أنّه لا يمكن عزل هذا الشعر عن بيئته التي أُبدع فيها، فإنّه لا يمكن جعل هذا الشعر بمنأى عن الظواهر الأسلوبية التي اعترت بنيته بوصفه دالاً على معنى قابل للتشكّل في ذهن المتلقي.

إنّ ثقافة الشاعر الجاهلي، وثراء شعره بالرؤى الفكرية، والبنى الفنية سمح بأنسنة واضحة للحيوان في كثير من النصوص الشعريّة، ممّا يُبرز أهمية هذه الدراسة في بيان العلاقة الوثيقة التي تربط الشاعر الجاهلي بحيوانات بيئته الصحراوية، ومعرفته الدقيقة بطبائعها وصفاتها التي ظهرت في لوحات شعريّة ذات انسجام مع حالة الشاعر النفسية، ورغبته في إضفاء الطابع الإنساني عليها بعدما أصبحت جزءاً من حياته اليومية.

* أستاذ مشارك / جامعة مؤتة/ الأردن.
* أستاذ مشارك/ جامعة البلقاء التطبيقية/الأردن

The Humanization of Animals in the Poetry of the Pre-Islamic Period

Maher Ahmad AlMobaideen

Emad Abdelwahaab Aldmoor

Abstract

The study aims at using modern stylistic research tools to uncover the aspects of humanizing animals in the poetry of the pre-Islamic period. The study also tries to tackle the role that the humanization of animals in the poetry of the pre-Islamic period plays in studying the nature of this poetry that can still be understood and appreciated. As it is impossible to distance this kind of poetry from the environment where it was created, it is also impossible to distance it from the stylistics that distinguish its structure and that make its meaning imaginable in the minds of its readers.

The knowledge of the poet of the pre-Islamic period and the richness of his poetry with intellectual visions and figurative language made it possible to humanize animals in his/her poetry. The study is important as it attempts to describe the relation between the poets of the pre-Islamic period and the animals of his/her environment. The study shows that those poets knew those animals very well, and that they utilized them in their poetry in a way that satisfied their psychological state and their wish to humanize them as they formed an essential part of their daily life.

مقدمة

كان الإنسان منذ القدم على صلة وثيقة بموجودات الطبيعة من حوله، إذ تعامل مع هذه الموجودات من جماد ونبات وحيوان بما يحقق له النفع والألفة، وبما يخدم حياته المعيشيّة.

لعلّ الحيوان بمختلف أنواعه وصوره من أكثر هذه الموجودات التصاقاً بحياة الإنسان، فهو وسيلته في الحرب، ورفيقه في السفر، ومصدر طعامه وشرابه، ممّا جعل صورته واضحة في الشعر الجاهلي، حتى وصل الأمر إلى اتّخاذ بعض أنواع الحيوان رمزاً للآلهة أو المعبودات، فإذا: " توغلنا في التاريخ العربي القديم راجعين إلى أبعد من الفترة القصيرة التي ينتمي إليها ما وصلنا من شعر قبل الإسلام حتى نبلغ مرحلة أكثر بدائية، وأوثق اتّصالاً بالدين القديم، لوجدنا الحيوان من بين الصور المهمة لمعبودات الإنسان القديم، فهو إما طوطم الجماعة، وجدها الأعلى، وإما معبودها الممثل، والرمز للإله السماوي: الكوكب الذي تتوجه إليه الجماعة في صلواتها"[1] .لقد وجد الإنسان آنذاك في الحيوان خصائص وسمات ميزته عن غيره، ممّا جعله يتخذه رمزاً للإله المعبود، كما أن هذا النوع من الاهتمام بنشأة الحيوان يدل على وجود لغة من نوع خاص بين الإنسان والحيوان يدخل فيها الجانب النفسي، وقد أشار كثير من الدارسين إلى هذا النوع من الانسجام أو الألفة، ومن ذلك: " روي أنّ العربي كان إذا ضل الطريق وغابت عنه المعالم ينبح كالكلب، فإذا كانت محلة قريبة منه ردد الكلاب نباحه لدقة ما حاكى، فاهتدى إلى المحلة، ولجأ إليها"[2].

ومن الأدلة كذلك أنّهم كنّوا الحيوان بما كانوا يكنّوا به أنفسهم، " فقالوا: أبا الحارث للأسد، وأبا الخصيب للثعلب، وأبا مضاء للفرس، وأم رئام للنعامة"[3].

وقد مارس الإنسان في تعامله مع الحيوان تقاليداً مختلفة بلغ فيها الحيوان مكانة مرموقة حتى وصل الأمر في بعض الأحيان إلى التقديس كما هو الحال مع الناقة السائبة، والبحيرة، والوصلة، والحامي .

هذه الأمور وغيرها جعلت الإنسان يتعامل مع بعض حيوانات الصحراء بصورة أكثر إنسانية، وأكثر أدمية، فأخذ يوجه إليه الخطاب ويناجيه، ويسأله ويشركه معه في أحاسيسه وما يدور في نفسه، ويبثه آلامه وأحزانه شعوراً نفسيّاً صادقاً أكثر منه تقليداً عقليّاً، فكان الشاعر الجاهلي يخاطب غيره من حيوان أو جماد، أو حتى إنسان وهو يريد نفسه، وهذا يعدّ عند البلاغيين من التجريد، وهو:" مقول على إخلاص الخطاب إلى غيرك وأنت تريد به نفسك...وهو أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطاباً لغيرك، وأنت تريده خطاباً لنفسك"[4]. ولا شك أن الإنسان العربي في العصر الجاهلي كان محتاجاً إلى من يخاطبه ويتحاور معه في تلك الصحراء القاحلة، وكذلك في حالات الشعور بالألم والحزن، بل في حالات الحبّ وتأجج العاطفة أيضاً، وفي حالات التفكير بالوجود والمصير والموت، والحياة أحياناً أخرى.

ومن هنا فإنّ هذه الدراسة ستتناول هذا الموضوع تحت ما يُسمى بظاهرة أنسنة الحيوان في الشعر الجاهلي، وذلك بالوقوف عند ملامح هذه الظاهرة واختيار بعض الحيوانات التي كان لها حضور مبرز في القصيدة الجاهلية، والتجأ إليها الشاعر الجاهلي مفضيّاً عليها صفات إنسانية وصولاً إلى أغراضه، ومن هذه الحيوانات: الناقة، والظليم، والبقرة الوحشية، والذئب، والفرس .

إنّ إبداع الشاعر للصورة الشعريّة يتطلب منه أنسنة المحسوس، والذهني؛ لإثارة حاسة المتلقي نحو النص، ووضعه في مساره الإبداعي الذي يحتفظ للغة ببكارتها، وألقها دون أن يجعلها وسيلة للتعبير فقط، ممّا جعل الشاعر يوغل في رسم صورة حلمية للمشهد تتحرر فيها الألفاظ من طواعيتها المعهودة؛ لتلامس أفقاً خصباً عند المتلقي يُعيد للذات حياتها ويذكرها ببعض مقومات وجودها:" فالشاعر من غير أن يعيّ كلّ الوعي، يمتزج عالمه الظاهري وعالمه الباطني في لحظة شعوريّة وأخرى لا شعوريّة، لأن هناك مناحي مترسبة في أعماق الوجدان، يستطيع الشاعر الفنان أن يجعلها تبرز مخترقة ستار الوعي"[5].

إنّ مغادرة اللغة لطبيعتها التعبيرية انحياز واضح لشعريّة النص، والفكرة المعبّر عنها، إذ جاء ترسيخ فعل الأنسنة في الشعر؛ ليُضفي فاعلية وجدانية على الجسد الكائن المؤنسن، لذلك نجد الشاعر يستبيح عذرية اللغة؛ ليتجه بالنص الشعري نحو رؤى أخرى وجدها عند معايشته للواقع، ممّا جعلها تبدو في صورة حية تعكس طبيعة الشعر الجاهلي وفاعليته الإبداعية على مرّ السنين.

لذلك جاءت كثير من أمثال العرب نابعة من عالم الحيوان، توضّح سلوكياته، وتكشف عن عاداته، كما في قول الدميري:" إنما كانت العرب أكثر أمثالها مضروبة بالبهائم فلا يكادون يذمون أو يمدحون إلا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والأحناش والحشرات فاستعملوا التمثيل بها لذلك" [6] .

إذ أضحت هذه الحيوانات شريكاً مهماً للشاعر في أفكاره، ومشاعره، كما يقول أحد علماء سلوك الحيوان:" قد تختبر الحيوانات انفعالات يكاد يستحيل التعبير عنها بكلمات وإن كانت تشوبها، ولكن هذه الاستحالة لا تعني أن الحيوانات لا تملك مشاعر وأحاسيس ومع ذلك قد يتشارك البشر مع الحيوانات في أغلبية المشاعر التي تستطيع الفصيلة الحيوانية الشعور بها"[7].

فالحيوان عند الشاعر الجاهلية جزء لا يتجزأ من حياته ، إذ إن صورته :" لا تفارق مخيلة البدوي تستهويه في رسم مادة فنه ، ويشتد إليه في حياته مثلما تستهويه صورة الماء دائماً في كل لحظة من حياته لحاجته إليه وندرته في تلك البادية الجدباء " .[8]

إنّ صلة الشاعر بالطبيعة متّسمة بضرب من الأنسنة والإحساس بحيوانات الصحراء وقدرتها على استيعاب المشاعر الإنسانية، فضلاً عن صلتهم بمكونات بيئتهم الخصبة، " ويبدو أن الشاعر حينما كان يخاطب عناصر الطبيعة لم يكن يدرك

زمن الخطاب أن هذه الأشياء لا تعقل ولا تفصح، وإنما كان موقفه النفسي يفرض عليه أن يتوجّه إلى مثل هذه الأشياء ويحدث معها تواصلاً بوعي أو دون وعي، ويكشف هذا الأمر عن العلاقة الحميمة التي كانت تربط الإنسان بالطبيعة" [9].

لقد تجلّت أنسنة الحيوان في الشعر الجاهلي في نماذج شعريّة دالة، لكن البحث اقتصر على بيان فعل الأنسنة من خلال الحيوانات التالية:

أ ـ الناقة ب ـ الظليم ج ـ الذئب د ـ البقرة الوحشيّة هـ ـ الفرس

أ . الناقة

تعدّ الناقة من أكثر الحيوانات اتّصالاً بمكونات بيئة الشاعر الجاهلي، وحياته اليومية ، وأكثرها كشفاً عن مشاعره، ممّا جعلها وسيلة من وسائل التعبير عن الذات والجماعة، لذلك فإنّ أنسنة الناقة ظهرت في لوحات شعريّة غنية بالمشاهد والعواطف، وتفيض بالحركة والخصب في المعنى.

وتظهر الناقة في المعتقد الجاهلي بوصفها طقساً مهماً من طقوس الحياة والموت، وبخاصة قضية عقر الناقة" لأنهم لا يريدون من هذا العقر إهانة للإبل أو تحطيماً لها أو موتاً للمعبود الذي تغنوا به، وأطالوا الغناء، وإنما يريدون الاتحاد بالمعبود. الناقة تعقر على قبر الميت؛ لتكون بجانبه بعد الممات، والموت في المعتقد الجاهلي ليس فناء، وإنما هو انتقال من حال إلى حال"[10].

يرصد القارئ لشعر علقمة صفات إنسانية للناقة، فهي حذقة، وحذرة تمارس حياتها بنشاط وحيوية ، دائمة التأهب تراقب ترقباً شديداً وصاحبة ذكاء حاد، ممّا جعل علقمة يُعلي من شأنها، حيث يقول[11]:

بِعَينٍ كمرآةِ الصَّناعِ تُديرها لِمحجَرِها مِنَ النّصيفِ المُنقّبِ
إذا ما ضَربتُ الدّفَّ أو صُلتُ صولةً ترقَّبَ مني غير أدنـــى ترقُّبِ

وناقته أيضاً تأخذ من طباعه فهي جسرة على الأهوال لنشاطها وحدتها وسرعتها ، دؤوبة ملحة في السير ، وهو أيضاً جسور على مثل هذه الأمور ، يقول : [12]

فَدَعها وَسلِ الهمَّ عنك بجسرةٍ كهَمِّك فيها بالرِّدافِ خبيبُ
ونَاجيةٍ أفْنى رَكيبَ ضُلوعِـها وحَارِكَها تَهجُّـــرٌ فَدؤوبُ

وغالباً ما يأتي الشاعر بقيم إنسانية تتمثلها ناقته ، فهي خفيفة قوية عُرِّيت من رحلها ، وهذا الوصف يجعلها في أحسن أحوالها ، وهي بهذا الوصف تتفق مع صاحبها في خفته ونشاطه و قوته ، يقول : [13]

فَالعينُ مِنِّي كأنْ غربٌ تحُطُّ بـه دَهْمَاءُ حَارِكُها بالقَتْبِ مَخزومُ
قد عُرِّيَت حِقبةً حتّى اسْتطفَّ لها كِترٌ كحَافةِ كيرِ القَينِ ملمومُ

إنّ الشاعر الجاهلي أوثق اتّصالاً بالناقة من غيره وأكثر مشاهدة لها في حله وترحاله، فهي ركن رئيس في حياته، تعيش معه وتقاسمه همومه وأحزانه، ممّا جعل

صورتها ملازمة لأفكاره، كما في قول المنخل اليشكري مصوراً هذا الحبّ تصويراً مكثفاً جعل من بعيره عاشقاً لناقة محبوبته [14]:

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّ ناقتها بعيري

وهذا يجعل عاطفة الحبّ مشتركة بين الإنسان والحيوان، وهي أنسنة تتجاوز المستوى اللغوي إلى مستوى الحياة الطبيعية التي تحياها الحيوانات، إذ أكد المرزوقي هذا الحبّ بين البعير والناقة وبشكل يشبه ما يقع من حبّ بين الشاعر ومحبوبته، حيث يقول:" ... كما حصل التحاب بينهما حصل التآلف بين بعيريهما، فإذا اتفق التباعد والافتراق ... أقبل البعيران يتحابان ويتجاذبان الوجد والنزاع كما يفعل المتحابان"[15].

وقد أكثر الشعراء من إبراز سلوكيات الناقة النفسية كالشكوى من طول الرحلة والحنين إلى الوطن، والسأم من الرحلة، والشعور بالتعب، لذلك تمارس الناقة فعل البوح عبر زفرات حزينة، وأنين مكلوم، وشكوى مريرة.

إنّ هذه المشاعر ذات صلة وثيقة بنفسية الشاعر، وانفعالاته الوجدانية، إذ كان الشعراء يختارون الناقة؛ ليديروا معها حديثاً نفسيّاً، فيذكر موقفها من طول الرحلة وما تعانيه من مشقة وإعياء، فتشتكي في رفق وتتململ، وفي صمت مستمر رغم معاناتها.

لقد عقد الشاعر مع ناقته علاقة متينة أضفى من خلالها عليها جوانب إنسانية فتراها تحسّ وتشعر وتنطق مصرّحة بما يعتريها من هموم، إذ تجسّدت هواجس الشاعر في الناقة، فكان أكثر ما أبرزه الشعراء من سلوكيات الناقة النفسية الشكوى من طول الرحلة، وما يرافقها من تعب، والحنين إلى الوطن، فتبوح الناقة بهذه المعاني مبرزة حزنها وآهاتها، وهي في الحقيقة آهات الشاعر نفسه وآلامه و حنينه ، كما في قول امرئ القيس[16]:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيتُها بسُحَامِ فَعَمايَتَيْن فهَضْبِ ذي أَقْدامِ

والناقة تحاور صاحبها تماماً كما يفعل الإنسان، كما في الحوار الذي أجراه امرؤ القيس مع ناقته، حيث يقول[17]:

ومُجِدَّةٍ نَسَّأتُها فَتكَمَّشتْ رَتْكَ النَّعامَةِ في طَرِيقٍ حامِ
تَخْذِي على العِلاَّتِ سامٍ رأْسُهَا رَوْعاءُ مَنْسِمُهَا رَثِيمٌ دَامِ
جالت لِتَصْرَعَني فقلتُ لها اقْصِرِي إنِّي امرُؤٌ صَرَّعِي عليكِ حَرامُ
فَجُزِيتِ خيرَ جزاءِ ناقةِ واحِدٍ ورجَعْتِ سالمةَ القَرَا بِسَلامِ

فالشاعر يتحدث عن علاقته مع قريبه (سبيع) مبيناً ما بينه وبين ناقته من علاقة حميمة تفرض عليهما المحبة والتعاون، فهي تأتمر بأوامره في السفر مسرعة كالنعامة صابرة طائعة دون ملل.

إنّ الشاعر لم يقابل إساءة ناقته له، واندفاعها أمامه بالإساءة بل قال لها:"

اقصري" بلغة تحمل من الرفق واللين ما تحمل، وكأنه يخاطب إنساناً يعقل، إذ يقصد من هذا الخطاب قريبه(سبيع) وإن كان الخطاب موجهّاً لناقته التي تعدّ معادلاً موضوعيّاً لقريبه؛ ليخبره بما يجب أن يكون عليه المرء في حالة الخلاف مع ذوي القربى.

ويستمر الشاعر بإنسانيته في خطابه لناقته بعدما حاولت صرعه، فيدعو لها بالخير، ويرجو لها السلامة، ممّا يُظهر موقفاً إنسانيّاً بامتياز، فقريبه (سبيع) لم يصبر على امتناع امرئ القيس عن عطاياه، فسارع إلى ذمه رغم ما بينهما من القربى، فكان موقف امرئ القيس الصبر على إيذاء الناقة متجاوزاً ذلك إلى الدعاء لها.

لقد أسند الشعراء الجاهليون لنوقهم صفات إنسانية واضحة، فنراهم يحاورونها مسندين إليها ما يقومون به من أفعال، فهذا الأعشى يطلب من ناقته عدم الشكوى، ويخاطبها بحدة مظهراً عدم تعاطفه معها، حيث يقول[18]:

فلا تشتكنّ إليّ الوجـــى وطول السُرى واجعليه اصطبارا
رواح العشي وسير الغدوّ يدا الدهر حتى تلاقـــي الخيارا

لذلك فإن إسقاط الشاعر همومه وأحزانه على الناقة سمة واضحة في الشعر الجاهلي، إذ "يرسم الشعراء للناقة الثكلى مناظر موجعة، فهي دائمة الحنين والسجر والوجد واللوعة والترجيع والبكاء لا تكاد تستقرّ في مكان، ولا يقرّ لها قرار، إذا رجعت حنيناً أبكى شجوها قطيع الإبل فبكت لبكاها، وحزنت لحزنها، فحزن الأم لا يُدانيه حزن وضعفها لا يُدانيه ضعف، بل إنّ ألم الحيوان وإحساسه لقسوة الموت لهو أعنف من ألم الإنسان"[19].

ويحتفظ الشعر الجاهلي بنماذج دالة على هذا الشعور العالي من الحزن الذي تحياه الناقة في حالة الفقد، كما في قول عمرو بن معد يكرب قارناً ألمه الذي يحياه بألم الناقة الثكلى على استمرار فقد أولادها [20]:

لعمرك مـا ثلاثٌ حائماتٌ على رُبَع يَرُعن وما يريعُ
وناب ما يعيش لها حوار شديد الطعن مِثكال جزوع
سديس نضجته بعد حمل تحرّى في الحنين وتستليعُ
بأوجد لوعة مني ووجداً غداة تحمّل الأَنَس الجميعُ

وهذا يعني أن الناقة تحسّ، وتشعر، وتتألم، تمتلك من الغرائز ما يمتلكه الإنسان، وتتصرف في سلوكياتها على أساس المشاعر الإنسانية في فرحها وحزنها، فضلاً عن شكوى التعب، ممّا جعلها تتخذ طابعاً بشريّاً بوصفها رفيقة درب الشاعر، وصاحبته التي لا تخالف له أمراً، كما في قول الأعشى[21]:

ذَاكَ شَبّهتُ نَقتي عن يمين الـ رَّعْنِ، بَعْدَ الكَلال والإعْـمالِ
وتراها تشكو إلـــيَّ، وقَدْ آ لَتْ طَلِيحاً تُحذى صُـدورَ النّعالِ

نّقَبَ الخُفُّ للسُّرى، فَتَرى الأثْـ سَاعَ من حِلّ سَعَةٍ وَارْتحَالِ

إنّ هذه الأنسنة البارعة للناقة جعلت شكواها فيض وجد صادق بعدما ضاق بها الأمر، وبلغ منها التعب مبلغاً لا يمكنها تحمله، ومتابعة المسير معه، فضلاً عمّا تعكسه هذه الأنسنة من ثقافة الشاعر الجاهلي الواسعة، وصفاء ذهنه ودقة تأمله، ممّا أعانه على تصوير مشاهد ذات دلالة خصبة، إذ تعد الخاصية الاستعارية واحدة من خصائص عمود الشعر عند العرب، إذ قيل:" أقسام الشعر ثلاثة: مَثَلٌ سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة"[22].

ويحتفظ المثقب العبدي في شعره بأبيات ذات دلالة واضحة على أنسنة الناقة، وبيان التحامها بوجدانه و مشاعره وحياته، حيث يقول[23]:

إذَا ما قُمْتُ أرْحَلُهـــا بِلَيْلٍ تَأَوَّهُ آهةَ الرَّجُلِ الحزِينِ
تقُولُ إذَا دَرَأتُ لها وَضِينِي أَهذا دِينُهُ أبَداً ودِينـــِي
أَكُلُّ الـدَّهرِ حَلٌّ وارْتِحـــالٌ أَمَا يُبْقي عَلَيّ ولا يَقِينِـي

وقد عدّ طَه حسين هذه الأبيات من روائع الكلام عندما وصفها بقوله:" أمّا أنا فأرى أنّه من أروع ما قال الناس، لا في اللغة العربية وحدها، بل في غيرها من اللغات أيضاً"[24].

لقد أحبّ الشاعر الجاهلي ناقته: " واشتدت الألفة بينهما، فرفعها إلى مستواه فاتخذ منها صديقة مصاحبة، وكأنها إنسانة تقاسمه المشاعر، وتشاطره الهموم، فأضفى عليها من صفات العقلاء ووجدان الأصدقاء، فناجاها وسمع إلى شكواها، وعبّر عنها، وكأنّه لسانها إذا نطقت، أو وجدانها إذا أفصحت" [25].

ولعل فيما سلف ما يؤكد مشاركة الشاعر ناقته مشاعره و أحاسيسه ، حتى إنه جعلها في كثر من النماذج جزءاً لا يتجزأ من حقيقة وجوده فهي رفيقة دربه ومعبرة عن كثير مما يدور في خلجات نفسه ، مما جعل مظاهر الأنسنة جلية في هذا النوع من الحيوان .

2 - الظليم

الظليم هو ذكر النعام، وأنثاه تسمى النعامة، وهو من الحيوانات التي وظفّها الشعراء في قصائدهم، ممّا يكشف عن قدرة هذا الحيوان على التجسّد في الشعر بوصفه موصوفاً قادراً على التشكّل في ذهن المتلقي:" إذ إنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينك"[26].

لقد سمحت أنسنة الظليم في الشعر الجاهلي بتشكيل بصري فائق الجودة للوحات الشعريّة التي رسمها الشاعر الجاهلي، ممّا أتاح للمتلقي الاتصال بطبائع هذا الحيوان، وما تكتنه من أحوال نفسيّة تظهر جليّة في سلوكيات هذا الحيوان، وبخاصة وحدة العواطف والمشاعر بينه وبين الإنسان، إذ إنّ: " أهم ما يُميّز حياة النعام من

وجهة نظرنا نحن البشر هو التحاب التام والمودة الكبرى بين ذكر النعام، وأنثاه. وذكر النعام ليس متعدد الزوجات مثل حمار الوحش، وحيوانات أخرى كثيرة، بل يتخذ أنثى واحدة يقتصر عليها، ويخلص لها طول حياته"[27].

لذلك فإن الصفة الإنسانية البارزة في الظليم هي التودد، والعيش مع أقرانه، والوفاء لأنثاه.

فنجد كعب بن زهير يرسم لوحة بارعة لعلاقة أسريّة نموذجية بين الظليم وأنثاه، تعكس علاقة المحبة التي تجمعهما، وحرص الظليم على القيام بدوره الأبوي بحماية النعامة وصغارها، وتعهد أسرته بالرعاية والحنان، كما في قوله[28]:

أفتلكَ أم ربداءُ عاريةُ النَّسا ... زَجَّاءُ صادقةُ الرَّواحِ نسُوفُ
ظلَّتْ تُراعي زوجَها وطَباهُما ... جِزْعٌ قد امرعَ سَرْبُهُ معيوفُ
وكأنّها نوبيةٌ وكأنّـــــــه ... زوجٌ لها من قومها مشعوفُ

إذ جاء تشبيه كعب بن زهير لهذه العلاقة الأسريّة تجسيداً واضحاً لما تكون عليه العلاقة الإنسانية في رعاية الأبوين لصغارهما.

إنّ أنسنة الشعراء الجاهليين للظليم أنسنة ذات طبيعة فاعلة وليست طارئة على النص الشعري، كما في قول زهير بن أبي سلمى في وصف الظليم الذي يتعهد أسرته بالرعاية والاهتمام[29]:

تأنيّ ورِدْني والفِتانَ ونُمْرقـــي ... على خَاضِبِ السَّاقينِ أَزْعَرَ نَقـنَقُ
تَراخَى بِه حُبُّ الضَّحاءِ، وقَد رأى ... سَماوةَ قَشراءِ الوَظِيفينِ، عَوهَقِ
تَحِنُّ، إلى مِثلِ الحبابيرِ، جُـــثَّم ... لَدَى سَكَنٍ، مِن قَيضِها، المُتـــفَلِّقِ
تَحَّمَ عَنها قَيضُها، عن خَـراطِـــمٍ ... وعن حَدَقٍ، كالنَّبْخِ، لم تَتَفـــــتَّقِ

لقد شكلّت لحظة عودة الظليم إلى عش صغاره مشهداً خصباً لفعل الأنسنة، بما يكشف عنه هذا المشهد من مشاعر الشوق والرغبة في الأمن خوفاً على البيض من المطر، أو التعرض لأي خطر خارجي، كما في قول علقمة بن عبدة[30]:

فُوهٌ كشَقّ العَصا لأيـاً تبيَّنُـــهُ ... أسكُّ ما يسمعُ الأصواتَ مصْلُومُ
حتّى تَذكّرَ بيضاتٍ وهيَّجَـــــهُ ... يومُ رذاذٍ عليه الريـــحُ مَغْيومُ
يأوي إلى خُرّقٍ زُعْرٍ قـــوادمها ... كأنَّهنَّ إذَا بَـرَّكْـــــــنَ جُرْثُـومُ
وضَّاعةٌ كَعصِيِّ الشـرّعِ جُوْجوءُهُ ... كأنّه تَنـــاهِي الـرّوضِ غُلجـومُ
حتَّى تَلافى وقَرْنُ الشمسِ مُرْتفِعٌ ... أُدْحِيَّ عِرْسَيْنِ فِيهِ البيْضُ مُرْكُومُ
يُوحي إليها بإنْقاضٍ ونَقْنَقـــــةٍ ... كما تراطنُ فِي أفْـدانِـــها الرُّومُ

لعلّ كلمة (يأوي) ذات دلالة واضحة على فعل الحنان والعطف الذي يمارسه الظليم مع صغاره، إذ " إنّ ذكر النعام من أكثر الآباء بين الحيوان تفانياً في خدمة صغاره والسهر على أمنهم وراحتهم" [31]. فضلاً عن أن قيامه بوظيفة الحماية، والدفاع عن أسرته، فهو يقظ، دائم التحسّب" لأخطار ما قد تكون عودته قد لفتت أنظاره من الضواري. وحين يطل على بيته يعلو الصياح منه ومن زوجه،

معبّراً عن عشهما بأنّه (أُدْحِي عرسين) لذلك فهما يتكلمان لغة إنسانية، وإن لم تكن مفهومة، إذ لا تزيد غرابتها عن رطانة الروم"[32].

ويرى سيد نوفل أن الظليم في ميمية علقمة رمز للعربي في سعيه لحماية عشيرته من أي خطر يتهددها، إذ إنّ أقصى غايته هو تحقيق الأمن، وبث السكينة في الديار، " وهذا اللون من الوصف للظليم يعدّ فريداً في هذا الدور، وريحه تهب في الواقع من ميدان عقلي فسيح، ومعنى الإنسانية فيه أظهر، لا يبدو من وراء الحجب، وإنما يبدو متجرّداً صريحاً، وصفة القص فيه أقوى، وأتم"[33].

أمّا ثعلبة بنُ صُعَيْر فيرسم لوحة بارعة للظليم محمّلة بأبعاد إنسانية نبيلة، تسعى إلى الحياة، وتتدفق بانسيابها وصفائها، إذ جسّد الظليم فيها حلم الشاعر، وأمله في السكينة مع أحبابه، إذ تعكس قصيدته هذه الرغبة المحمومة والرغبة في الحياة، كما في قوله[34]:

وكأَنَّ عَيْبَتَها وفَضْلَ فِتَانِهـــا فَنَنَانٌ من كَتَفَيْ ظَلِيم نافِـــــر
يَبْرِي لِرَائِحَةٍ يُسَاقِطُ رِيشَـــهَا مَرُّ النَّجَاءِ سِقَاطَ لِيفِ الآبِـــرِ
فَتَذَكَّرَتْ ثَقَلاً رَثِيداً بَعْـــــدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَها في كافِـــــرِ
طَرِفَتْ مَرَاوِدُها وغَرَّدَ سَقْبُها بِالْآءِ والحَدَجِ الرِّوَاءِ الحـــادِرِ
فَتَرَوَّحَا أَصُلاً بِشَدٍّ مُهـذَّبٍ ثَـرٍّ كَشُؤْبُوبِ العَشِيِّ المـــاطِرِ
فَبَنَتْ عليه معَ الظَّلامِ خِبَاءَها كالأَحْمَسِيَّةِ في النَّصِيفِ الحَاسِرِ

وما تشبيه الشاعر لما برز من متاعبه بجناحي الظليم إلا انعكاس للبعد الإنساني الذي أضفاه على الظليم، إذ جاء لفظ(الفنن) الدال على الخضرة والارتفاع في ثبات تعميقاً لهذا البعد الذي يلتقي مع ما في نفس ثعلبة من استشراف لحياة هانئة، تبحث عن الحياة، وتبعث البهجة والأمل فيها.

ويصف ثعلبة الظليم بأنّه (يبري لرائحة) أي يعدو بحرص وحبّ خلف نعامه، ممّا يعكس بوضوح تجلّيّ فعل الحياة، والسعي نحو الطمأنينة والأمان." فعلى الرغم من قصر هذه الصورة حيث لا تستغرق سوى ستة أبيات فقط، إلا أننا نراها متكاملة الأحداث، فالظليم يعارض النعامة ويباريها في جريها نحو الأدحي حيث تذكرت بيضها عند هبوط الليل، فتركت المرعى وأسرعت إليه، فلما بلغاه حضنته في حرص كأنها ضباء تحميه، وتمنحه الدفء"[35].

ويبدو أن فكرة أنسنة الظليم الذي يشارك أنثاه وأسرته محافظاً عليها يتعهدها بالرعاية ، قد استهوت الشعراء ، ففي حديث امرئ القيس عن حمار الوحش يكشف صفات إنسانية مشتركة بين هذا الظليم و الإنسان رب الأسرة الذي يحافظ على بيته وأسرته : " إذ يقع على عاتق الظليم توفير الحماية لأسرته ، لأنه المسؤول عن الخصب أيضاً ، تأكيداً لمعاني الذكورية و الأبوية ، وبخاصة أن الظليم لديه قوة جنسية غير عادية " ، يقول امرؤ القيس :

كأنّي ورَحْلي والقِرابِ ونُمرُقي إذا شَبَّ لِلمروِ الصِّغارِ وبيصُ

على نَقْنقٍ هَيْقٍ لـه ولِعِرسِه بِمُنعرجِ الوَعْساءِ بَيضٌ رَصيصُ
إذا راح لِلأُدحيِّ أوْباً يَفُنّـها تُحاذِرُ مـن إدْراكِهِ وتَحيـــــصُ

فالقلق و الخوف ينتابان الظليم خوفاً على فراخه وأسرته ، إيماناً منه بأنه المسؤول عن رعايتها .

لقد أضفت أنسنة الظليم على لوحة الشاعر بعداً نفسيّاً ينغمس في لذة الحياة، إذ يُمني النفس بامتداد الاستقرار، ويحصّن الحياة ضد فعل الفناء الذي يُحيق بها من كلّ جانب.

3 - الذئب.

تأتي علاقة الشاعر الجاهلي بالذئب في إطار العلاقة بالطبيعة التي أوجدت هذا الحيوان الصحراوي، وأكسبته طابعاً خاصاً، فقد جعل الشعراء الجاهليون" من الذئب الجائع ضيفاً يقرونه، ويأنسون به، وتجاوز البعض ذلك إلى الزعم بأن الذئب كلمه" .

ولا عجب أن يُبدع الشاعر الجاهلي تصوير حال الذئاب الجائعة، وهو مَن عاش حياة الصحراء كما عاشها الذئب، ممّا جعله يسبغ: " الصفات الإنسانية عليه من نظام الجماعة، والجزع، والتأسي والصبر، كما أنّه قد أحسّ التصوير، وجعله واضحاً مشخصاً فاتناً، يسر القارئ على مشاركته العطف على هذه الجماعة وحالها، والجزع لفقدانها الصيد، وإن كان الصيد عدوانا"

يقدم الشنفرى صورة رائعة للذئب ترتبط بحياة الشاعر التي قضاها في التشرّد، إذ يرسم نموذجاً إنسانيّاً راقياً للعلاقة الوثيقة التي تربط الإنسان ببيئته، بكلّ ما تحمل من مصالحة ونزوع نحو الاستقرار، حيث يقول في وصف الذئب الجائعة:

وأَغْدُو عَلَى القُوتِ الزَّهِد كما غَدَا أَزَلُّ تَهادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَـــــل
غدا طَاوِياً، يُعَارِضُ الرّيحَ هَافِياً يَخوتُ بأذْنَابِ الشِّعَابِ، ويَعْسِلُ
فَلمَا لوَاهُ القُوتُ منْ حَيثُ أَمــــهُ دَعَا فَـأَجَابَتْهُ نَظَـائِرُ نُحـَــــلُ
مُهَلْهَلَةٌ، شِيْبُ الوُجوهِ كَأَنّهَـــــا قِدَاحٌ بِكَفّي يَاسِرٍ تَتَقَلْقَـــــلُ

وهو في موضع آخر يجعل من هذه الذئاب الجائعة مقابلاً لنفسه البائسة، وجسده الجائع، فكلاهما وقع عليه غضب الطبيعة، وضج بالبكاء، حيث يقول[36]:

فَضَجَّ وَضَجَّتْ بِالبَرَاحِ كَـأَنّهَا وإيّاه نُوحٌ فَوق عَلْيَـاءَ ثُكْـــلُ
وَأَعْضَى وأَعْضَتْ وأَتْسى وَاتَّسَتْ بِهِ مَرَمِيلُ عَزّاهَا وَعَزَّتْهُ مُرْمَـــلُ
شكَا وَشَكتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وارْعَوَتْ وَللَصَّبْرُ إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أجْمَلُ

فالذئب والشاعر شريكان في المعاناة، يتبادلان الشكوى بينهما، لذلك جاء استعصامهما بالصبر نتيجة حتمية لقسوة الطبيعة عليهما، ورغبتهما في الحياة.

حيث :"ارتبط الذئب بالجوع و الفقر في الشعر العربي ، إذ صور كثير من الشعراء جوعهم من خلال إسقاط هذا الجوع على الذئب ، الأمر الذي جعل فئة

الصعاليك و الصيادين من أكثر فئات المجتمع العربي تشبهاً بالذئب ، كما أسهمت صورة الذئب في التعبير عن واقع الفقر و الجوع الذي كان يعم المجتمع من حين لآخر بسبب القحط و الجدب فيفضي بالناس إلى الفقر و الجوع والتشرد ." [37]

وهذا ما جعل تأبط شرّاً يحاور الذئب محاورته للصاحب، ممّا يعكس فعلاً إنسانيّاً راقيّاً، وعلاقة حميمة تربط الشاعر بالذئب الذي لازمه في حلّه وترحاله، وكأنّه جزء من معاناته وتشرده في الصحراء، حيث يقول[38]:

و قِرْبَةِ أَقْوَامٍ جَعَلتُ عِصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مِنّي ذَلُـــــولٍ مُرَحَّلِ
وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كَالْخَلِيعِ المُعَيَّلِ
فَقُلْتُ لَهُ لَمّا عَوَى إِنَّ شَأْنَنَا قَلِيلُ الْغِنَـى إِنْ كُنْتَ لَمّا تَمَـــــوَّلِ
كِلاَنَا إِذا مَـا نَالَ شَيْئاً أَفَاتَـهُ وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يُهْزَلِ

فالذئب جاء في صورة إنسانية بالغة الدقة لما ألت إليه أحواله، فهو مقامر لا يُبالي لأفعاله، وما سيقوده استمرار فعله من بؤس لمن يُعيل من ذئاب، ممّا جعله يتشابه مع شخصية الشاعر المتمردة التي لا تجدّ ما تسدّ به رمقها ولا رمق رفاقها من الصعاليك.

أمّا المرقش الأكبر، فقدّم صورة إنسانية لذئب استضافه في بيته، فأكرمه" كما يُكرم الضيف، مصوراً الكرم الأصيل الذي يُقدّم للضيف مهما كان شكله، لا يُفرق بين تقديمه بين إنسان وحيوان"[39] لذلك جاء حديثه عن زيارة الذئب له في إطار قصصي، يكشف عن تجليات هذه الزيارة في نفسه، حيث يقول[40]:

ولمَّا أضَأْنا النَّارَ عِنْدَ شِوَائِنَا عَـرَانا عليها أَطْلَـسُ اللَّـوْنِ بـائِسُ
نَبَذْتُ إليهِ حُزَّةً مـن شِـــوَائِنَا حَيَاءً، وَما فُحْشِي عَلَى مَنْ أُجَـــــالِ
فَأَضَ بها جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأسَهُ كما آبَ بالنَّهْبِ الكَمِـيُّ المُحَالِـــــسُ

ولعلّ توجيه النداء للذئب، وإلقاء التحية عليه والشعور بمعاناته، مظهر من مظاهر الأنسنة التي حظي بها الذئب في شعر امرئ القيس، إذ يعرض الشاعر العواطف المتبادلة بينه وبين الذئب؛ لتتجلى حميمية العلاقة التي تجمعهما، كما في حواره الإنساني مع الذئب، حيث يقول[41]:

وماءٍ كلونِ البوْل قد عادَ آجناً قليل به الأَصواتُ في كَلَإٍ مَحْـــــلِ
لقيت عليه الذِّئبَ يَعْوِي كأَنَّـهُ خليعٌ خلا من كُلّ مالٍ ومن أَهْـــــلِ
فقلتُ له يا ذئبُ هل لَك في أخٍ يـواسي بِلا أُثْرَى عليك ولا بُخْـــلِ
فقال هداك اللهُ إنكَ إنَّمـَـــــاً دَعَوْت لما لمْ يأْتِـهِ سَبُعٌ قَبْلِـــــــي
فلست بـآتيه ولا أَستطيعـــــه وَلَاكِ اسْقِنِي إن كـانَ ماؤكَ ذا فَضْـلِ
فقلتُ عَلَيْكَ الحوضَ إني تركتُهُ وفي صَفْوِهِ فَضْلُ القَلُوصِ من السَّجِل
فـطَّربَ يستعْوِي ذئاباً كثيرةً وَعَدَّيتُ، كُـلٌّ مـن هواه على شُـــــغْلِ

إنّ مخاطبة الذئب بهذه الصورة الإنسانية، يعكس مدى ارتباطه الوثيق بالبيئة الصحراوية التي يحياها الشاعر، ممّا سمح بإقامة حوار معه بعدما افتقد لمثل

هذا الحوار مع أقرانه من البشر، إذ أقام الشاعر خطاباً إنسانيّاً راقياً مع الذئب يتضمن معاني المواساة، ونغمة الأخوة والتصالح مع الآخر وذلك باستيعاب أحزانه، والرغبة في التخفيف من آثارها.

إذ يكشف حوار الشاعر مع الذئب عن فرديّة الذئب في بحثه المحموم عن الماء، واستكشافه لمواضعه، فلما دلّه الشاعر عليه، دعا بقية رفاقه، ممّا يدل على حنكة الذئب وحسن تدبيره، وهذا ما يتأتّى للبشر في حياتهم، حيث امتلاك مهارة حسن السيطرة والقيادة.

لقد استطاع امرؤ القيس ترويض جماح الذئب، وإكسابه طابعاً إنسانياً يُخرجه من طبيعته الحيوانية، وتجعله أكثر قدرة على إحداث التوافق المطلوب بين متحاورين، إذ تجاوز الذئب دوره في التلقي إلى المشاركة في الحديث، ممّا يضع المتلقي أمام عالم جديد من العلاقات لم يألفها من قبل، تكشف عن وجدان المبدع ورغبته في استنطاق ما لا ينطق؛ للتعبير عن انفعالاته، ورؤياه للأشياء.

4- البقرة الوحشيّة.

تعرّض الجاحظ في كتابه الحيوان لسلوك البقر الوحشي في قصائد الشعراء الجاهليين، وذلك في سياق حديثه عن الكلاب حين تعرّض لصراعها مع البقر الوحشي، وكذلك مع الثور الوحشي في نصوص الشعراء ، حيث قال:" ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً ، وقال : كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة ... ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب، وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنّها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظاهرة، وصاحبها الغانم"[42].

وهذا يعكس البعد الرمزي للبقر الوحشي في الشعر الجاهلي، وإمكانية ممارسة القراءة التأويلية التي تُضفي مزيداً من الأبعاد الإنسانية عليها ،كما في قول الأعشى واصفاً قطيع البقر الوحشي في معركته مع الكلاب[43]:

تَـرَاهَـا إذا أَدْلَجَتْ لَيْلَةً، هَبُوبَ السُّرَى بَعْدَ إسآدِهَا
كَعَيْنَاءَ ظَـلّ لَهـا جُــوْذُرٌ بقُنَةِ جَـوٍّ، فَأَجْمَاـــدِهَـا
فَبَاتَتْ بِشَجْوٍ تَضُمّ الحَشَا على حُزْنِ نَفْسٍ، وَإيحَادِهَا
فَصَبَّحَهَا لِطُلُوعِ الشُّرُوق ضِـرَاءٌ تَسَامَى بِإيسَـادِهَا
فَجَالَتْ وجَـالَ لَهَا أَرْبَـعٌ جَهَدْنَ لَهَا مَـعَ إجْهـادِهـا
فَمَا بَرَزَتْ لِفَضَاءِ الجَهَادِ، فَتَتْرُكَهُ بَـعْدَ إشْرَادِهَـــا
وَلَكِـنْ إذا أَرْهَقَتْهَا السَّـرَا عُ كَرّتْ عَلَيْـهِ بِمِيصَادِهـا

وما تعبير الشاعر(حُزْنِ نَفْسٍ، وَإيحَادِهَا) إلا تعبير إنساني واضح لمدى الأثر النفسي الذي يُعانيه قطيع البقر في معاناة أفراده المستمرة، وما يرافقها من فعل الفقد." إنّها صورة قدرية فاجعة، تتجمّع خيوطها من مسربين متناقضين، وتتشابك

مكونة ذروة المأساة التي يخلع عليها الشاعر ثوباً إنسانيّاً حزيناً، فالبقرة آمنة في سربها راتعة بين ثيران رتع، اجتمعت لها حماية الذكور، وخصب المرعى، ولكن هذا الأمان كاذب؛ لأنها تركت جزءاً من نفسها دون حماية، تظن أن بعده عن القطيع أكثر أمناً له، ولا تأتيها الفاجعة إلا من هذا المأمن"[44].وهو ما عبّر عنه الأعشى في قوله[45]:

فَظَلّ يَأكُلُ مِنْها، وَهيَ رَاتِعَـــةٌ حَدَ النّهَارِ تُرَاعي ثيرَةً رُتُـــــعا
حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرْعِها اجتَمَعتْ جاءتْ لتُرْضِعَ شِقّ النّفسِ لوْ رَضَعَا
عَجْلاً إلى المَعهَدِ الأدنَى ففاجأَهَا أقْطَاعُ مَسكٍ وَسافتْ من دمٍ دُفُـــعَا
فَانصَرفَتْ فَاقِداً ثُكْلَى على حَزَنٍ، كُلٌّ دَهَاهَا وَكلٌّ عِندَها اجتَمَعـــــَا
وَذاكَ أنْ غَفَلَتْ عَنْهُ وَما شَعَرَتْ أنّ المَنيّةَ يَوْمـاً أرْسَلَتْ سَبُعَـــــا

ففعل الأنسنة واضح، وأثره راسخ في النفس، وبخاصة "أنّ الشاعر يُبدع في تفجير مشاعر الأمومة الحزينة، والتعبير عن حسرة الثكل بصورة إنسانية عميقة دون أن يصخب، أو تهدر كلماته، ولكن في وصف هادئ ومن خلال كلمات سلسة النعومة"[46].

ولعلّ هذا التوظيف لقصة البقر الوحشي يعكس رحلة الإنسان الحافلة بالصراع الأزلي بين الحياة والموت، ممّا جعل شخصية البقرة الوحشيّة تتبدّى بوصفها شخصية موازية لشخصية الشاعر، ورمزاً يختفي وراءه، وما سلوكيات البقرة الوحشية ومواقفها داخل النصوص الشعريّة إلا امتداد لسلوكيات الشاعر على أرض الواقع.

إنّ مشهد اجتماع الثور بالبقر في فصل التزاوج والخصب، يُضفي معاني إنسانية واضحة على هذا الاجتماع، كما في قول امرئ القيس[47]:

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأَنَّ نِعاجَـــهُ عَذَارَى دَوارٍ في المُلاءِ المُذَّيّلِ
فأَدْبرن كالجَزْعِ المفصَّلِ بينَه بِجيدٍ مُعَمٍّ فـــي العَشيرة مُخْـــوَلِ
فألْحَقَنَا بالهادِيَاتِ ودُونَـــــه جواحِرُها في صَرَّةٍ لم تَـــزَيَّلِ
فعادَى عِداءً بين ثَوْرٍ ونَعْجة دِراكاً ولَـمْ يُنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَـلِ

إذ شبه قطيع البقر في مِشيته وطول أذنابه وبياضه ، بالجواري الأبكار اللواتي يمارسن طقوسهن بقداسة ممّا يشي بفعل إنساني مغرق في السمو، والرغبة في استمرار الحياة.

5 ـ الفرس

يحتل الفرس مكانة مهمة في القصيدة الجاهلية، فهو حيوان الحرب والسلم معاً، يستعيد الشاعر من خلاله بطولاته القتالية، ويشحذ به الهمم للذود عن الحياض، ممّا يسمو بالخيال ويبعث التصورات الأسطورية للفرس بوصفها رمزاً للحياة والتجدد .

وقد أبدع امرؤ القيس في وصف فرسه، ومنحها طابعاً حيّاً للتدفق والانبعاث

وذلك بنسيج نصي خصب يربط الفرس بالظبي للدلالة على رمزية المرأة، حيث يقول[48]:

وقد أَغْتَدِي والطَّيْرُ في وُكُنَاتِها ... وماءُ النَّدَى يَجْرِي على كلِّ مِذْنَبِ
بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ لاَحَهُ ... طِرادُ الهَوَادِي كلَّ شَأْوٍ مُغَرِّبِ
عَلَى الأَيْنِ جَيّاشٍ كأَنَّ سَراتَهُ ... على الضُّمْرِ والتَّعْداءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ
يُبارِي الخَنُوفَ المستقِلَّ زِماعُه ... تَرى شَخْصَه كأَنَّه عُودُ مِشْجَبِ
له أَيْطَلا ظَبْيٍ وساقَا نَعَامَةٍ ... وصُهْوَةُ عَيْرٍ قائمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
ويَخْطُو على صُمٍّ صِلابٍ كأَنَّها ... حِجَارَةُ غَيْلٍ وارِسَاتٌ بِطُحْلُبِ
لَه كَفَلٌ كالدَّعْصِ لَبَّدَهُ النَّدَى ... إلى حَرِكٍ مِثْلِ الغَبِيطِ المُذَأْبِ

ولعلّ ارتباط الفرس بالظبي تأكيد واضح لفعل الخصب، وانعكاس لأنسنة من نوع فريد، فهما" يمثلان مظاهر الحياة والأمومة والولادة والتجدد، ونحوها من المعاني التي ظلّ يستحييها الشاعر في نصّه، مواجهاً بها نقائضها في : الطلل والليل والبحر، أو حتى المطر"[49].

ويجعل عبيد بن الأبرص من الفرس صاحباً له، يرافقه في رحلته للصيد، فيمعن في وصف قوته، وصلابة جسمه، ورشاقة حركته، حيث يقول[50]:

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ الغَطاطِ وَصَاحِبِي ... أَمِينُ الشَّظَا رِخْوُ اللَّبَانِ سَبُوحُ
إِذا حَرَّكْتَهُ السّاقُ قُلْتَ مُجَنِّبٌ ... غَضِيضٌ غَدَتْهُ عَهْدَةٌ وَسُرُوحُ

ويُمعن عنترة العبسي في أنسنة فرسه مسقطاً ما في نفسه من قوة وعزيمة على فرسه، فهي تقتحم المعركة دون خوف، وتقدم بلا تردد، حيث يقول[51]:

سَلِسُ العِنَانِ إلى القِتَالِ فَعَيْنُهُ ... قَبْلاءُ شاخِصَةٌ كَعَينِ الأَحْوَلِ
وكأَنَّ مِشْيَتَهُ إِذا نَهْنَهْتُهُ ... بالنَّكلِ مِشيةُ شارِبٍ مُستعجِلِ
فَعَلَيْهِ أَقْتَحِمُ الهِيَاجَ تَقَحُّماً ... فيها وَانْقَضّ انقضَاضَ الأَجْدَلِ

ويلجأ عنترة العبسي إلى أسلوب الحوار لبيان حميمية علاقته بفرسه، بعدما استحالت هذه العلاقة إلى حوار مباشر يجريه الشاعر مع فرسه، ممّا كشف عن أنسنة تتجاوز استخدام الفرس المألوف إلى تعميق لعلاقة إنسانية ذات طبيعة تواصلية، وتوافق كبير بين الفرس والفارس، كما في قوله[52]:

خَرَجْتُ إلى القَرْمِ الكَمِيّ مُبادِراً ... وَقَد هجستْ في القلبِ مني هَوَجسي
وقُلتُ لمُرهِفي، والقنا يَقْرَعُ القَنَا: ... تَنَبَّه، وكُنْ مُستيقظاً غيرَ ناعسِ
فجاوبَني مُهرِي الكريمُ وقالَ لي: ... أنا من جيادِ الخيْلِ كن أنتَ فارسي

ويمتلك فرس عنترة ما يمتلكه صاحبه من قوة وإقدام، لذلك فإنّ فعل الأنسنة الذي أبدعه الشاعر لم يُغفل وضع الفرس موضعه القتالي الذي كشف توافقاً نفسيّاً ووجدانيّاً بين الشاعر وفرسه، قاد إلى بطولة خالدة ، حيث يقول الشاعر[53]:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ في لَبَانِ الأَدْهَمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحرِهِ ... وَلَبَانِهِ حتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ
فَازْوَرّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ ... وَشكَا إِليّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَوْ كانَ يَدْرِي مَا المُحاوَرَةُ اشْتكى ... وَلَكانَ لَوْ عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي
وَلَقد شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الفَوَارِسِ وَيكَ عَنتَرَ أَقْدِمِ

فالشاعر في محاولته للبحث عن البديل النفسي يَتثبّت بفرسه القوية التي

تخوض غمار المعركة دون خوف، إذ تتبدّى في فرس عنترة صورة الإنسان الحرّ الباحث عن الحرية، والمستعدّ لتقديم حياته في سبيل ذلك. وهنا يخلع عنترة على فرسه" صفة من أبرز الصفات الإنسانية هي صفة البكاء و الشكوى، ونحسّ ما يقوم بينهما من مودة وتراحم، وترحب نفس عنترة فتسع ذاته وذات جواده، ويمحي جدار العجمة بينهما أو يكاد، ثم يقف ترجملناً بيننا وبينه، فيقول: فازوّر،... ولوكان يدري"[54].

إنّ وصف الفرس في النماذج الشعريّة نص مؤسس يفترض علاقة التبادل والتداخل بين الشاعر وفرسه، إذ يقدّم الفرس بما يمتلكه من مقومات إمدادات هائلة، أراد الشاعر من خلالها إسقاط هذه الصفات على نفسه.

وتتجلّى النزعة الإنسانية في وصف علقمة لفرسه الذي ظهر في صورة "الحبيب الأثير، والصاحب الوفي، وتتجلّى تلك النزعة الإنسانية بوضوح، فتراه لا يقف عند الأوصاف التقريرية الجامدة، وإنما تجعله تلك الألفة يرتفع بحصانه عن مرتبة الحيوانية إلى درجة تصل به حدّ مدحه، والافتخار به، والاشفاق عليه، ويظهر ذلك من تلك الصورة التي ينقلها الشاعر عن أخلاق هذا الحصان الذي يشارك القبيلة همومها، فهو حمّال المحامل، والمقاوم، يوثق به إذا ما عزّ الزاد، فهو مطعم الجياع"[55]. كما في قول علقمة[56].

أخا ثقةٍ لا يلعنُ الحيُّ شخصهُ صبوراً على العلاتِ غير مُسَّببِ
إذا أنفذوا زاداً فإنّ عيناَـــهُ وأكرُعَهُ مستعملاً خيرُ مكسبِ

وثمة موضع آخر تظهر فيه أنسنة الفرس نلحظها عند الشاعر الصعلوك الذي كان يشكو الجوع والعدم في شعره ، فقد كان يخلع على فرسه بعض الصفات الإنسانية حتى غدا الفرس معادلاً موضوعياً لهذا الصعلوك الجائع المعدم ، فهو ضعيفٌ هزيل من شدة جوعه وكذلك يبدو فرسه هزيلاً ضعيفاً مثل صاحبه ، غير أنه شجاعٌ مقدام ، وخير من يمثل هذا المشهد الشنفرى واصفاً فرسه اليحموم : [57]

ولا عيب في اليحموم غيرَ هزالِـهِ على أنّهُ يَومَ الهَياجِ سمين
وكَمْ من عَظيمِ الخَلْقِ عَبلٌ موثّقٌ حَـواهُ وفيهِ بَعدذاكَ جُـنونُ

ويعلق يوسف خليف على هذين البيتين بقوله : " يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى هزاله ، ولكنه جريء مقدام ، تطغى جرأته وإقدامه في أثناء القتال على هزاله ، إن الخيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه ... وطرافة الصورة تأتي من أن الشنفرى يضفي صفات التصعلك على جواده ، فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليها الفقر و الجوع ولكنه كصاحبه أيضاً جريء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة وأن الرزق في الشجاعة".[58]

في ضوء دراسة النماذج السابقة تبين أن الشاعر الجاهلي اتخذ من فرسه وسيلة للتعبير عما يدور في نفسه ، وما يعانيه من ظروف في حياته ولهذا أسقط على فرسه صفات الأنسنة السابقة التي بدت جلية في تلك النماذج .

الخاتمة

لقد جاءت أنسنة الحيوان في القصائد الشعريّة المدروسة معبّرة عن الحياة الجاهلية بكلّ أبعادها الفكرية والروحية، إذ ظهر الحيوان في لوحات فنية بارعة ذات رموز وأدوات فنية، وهو جانب مهم في بيان أصالة الشعراء، فضلاً عن كونه أحد اللبنات التي تسهم في تماسك النص الشعري، وجعله أكثر إحكاماً.

إنّ لوحات أنسنة الحيوان تتسم بالحيوية والغنى والحركة، فضلاً عن اتصافها بالعواطف، ممّا جعل هذه الحيوانات شريكاً واضحاً للشاعر في أفكاره، ومشاعره.

ووفقاً لهذه الرؤية فإن الشاعر الجاهلي قد أدرك مدى العلاقة ودرجة قربها بينه وبين ما ألفه من حيوان في بيئته البدوية الصحراوية ؛ ولهذا خلع الشاعر الجاهلي على تلك الحيوانات التي ألفها وتعامل معها صفات إنسانية تدل على مدى التماهي بينهما ، حتى رأينا أنه في بعض الصور و الحالات أن هذه الحيوانات تشكل معادلاً موضوعياً لنفسيته بما تنطوي عليه من مشاعر وأحاسيس ، وهو الأمر الذي تم ملاحظته في حديث الشاعر عن ناقته وفرسه ، فضلاً عما رآه من قيم إنسانية و معانٍ يلتقي فيها مع بعض حيوان اصحراء ، كما بدا ذلك من خلال النماذج التي أظهرت صورة الظليم و الذئب والبقرة الوحشية ، ولعل في هذا وذاك ما يؤكد عمق العلاقة والرابطة الإنسانية على الأقل بين الشاعر وما ألفه من حيوان.

الهوامش

1. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، شركة الفجر العربي ، بيروت ، 1980 ، ص123.
2. نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1987، ص31.
3. المرجع نفسه، ص 31.
4. طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية، ط3 ، دار المنارة ، جدة ، 1988، ص124.
5. عيد، رجاء، دراسة في لغة الشعر (رؤية نقدية)، دار المعارف، الإسكندرية، د . ت ، ص42.
6. الدميري، حياة الحيوان الكبرى،ج1، ط1 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص11.
7. ماسون ومكارثي، جفري وسوزان، عندما تبكي الفيلة" الحياة الانفعالية عند الحيوان"، ترجمة نهلة بيضون، ط1، المجمع الثقافي ، أبو ظبي، 1999م، ص 340.
8. جمعة ، حسين؛ الحيوان في الشعر الجاهلي ،ط1 ، دار رسلان للنشر و التوزيع سوريا ، 2010 ، ص59.
9. الربابعة، موسى، جماليات الأسلوب والتلقي، ط1، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2000م، ص63.
10. أبو سويلم، أنور،الإبل في الشعر الجاهلي، دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث ، ط1 ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، 1983 ،ج1، ص 275.
11. علقمة الفحل ، الديوان ، شرح الأعلم الشنفمري ، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربي ، حلب ، وانظر : حسين، عبدالرزاق،علقمة حياته وشعره، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ، ص 67 ، 68.
12. علقمة الفحل ، الديوان ، ص37 .
13. المصدر نفسه، ص 54،53
14. المرزوقي، مقدمة ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط1، لجنة التأليف و الترجمة والنشر ، القاهرة ، 1951 ، ج1 ، ص529.
15. المصدر نفسه، ص 9.
16. امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف، القاهرة،
17. المصدر نفسه، ص 115 . 116.
18. الأعشى ميمون بن قيس ، الديوان ، تحقيق محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ،ص47 .
19. أبو سويلم، أنور، الإبل في الشعر الجاهلي، ج1 ، ص89.
20. الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب ،الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون ، ط5 ، بيروت ، 1963 ، ص176.
21. الأعشى، الديوان ، ص 248.
22. المرزوقي، مقدمة ديوان الحماسة، ج1، ص 10.
23. الضَبِّي، المفضل بن محمد بن يعلي، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، ط6، دار المعارف، القاهرة، د . ت، ص ص 291 . 292.
24. حسين، طه، حديث الأربعاء، ط13 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص169.

25. شلبي، سعد إسماعيل، الأصول الفنيّة للشعر الجاهلي، ط1، مكتبة غريب، القاهرة، 1977م، ص 331.
26. العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت 1986م، ص128.
27. النويهي، محمد، الشعر الجاهلي(منهج في دراسته وتقويمه)، ج1، د . ط، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د . ت، ص381.
28. كعب بن زهير، الديوان ، صنعة أبي سعيد السكري ، تحقيق حنا نصر الحتي ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1994 ، ص 120.
29. زهير بن أبي سلمى، شرح الديوان ، صنعة الإمام ثعلب ، الدار القومية ، القاهرة ، 1964 ، ص 178.
30. علقمة الفحل ، الديوان ، ص59 – 62 .
31. النويهي، محمد، الشعر الجاهلي(منهج في دراسته وتقويمه)، ج1، ص382. وانظر ، المبيضين ، ماهر ، الظليم و مواضع وروده في القصيدة الجاهلية ، مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، مجلد (12) ، عدد (2) ، جامعة آل البيت ، 2006 ، ص395 – 396.
32. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي، ص149.
33. نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص 63.
34. الضَبِّي، المفضل بن محمد بن يعلي، المفضليات، ص ص 129 - 130.
35. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي، ص147.
36. الشنفرى ، الديوان ، ص 44 - 45.
37. المهيرات ، رائد ؛ صورة الذئب في العربي من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، رسالة ماجستير ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية ، 2009، ص216.
38. تأبط شراً، الديوان، إعداد طلال حرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م، ص ص81 - 82.
39. القيسي، نوري حمودي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص161.
40. الضَبِّي، المفضل بن محمد بن يعلي، المفضليات، ص 226.
41. امرؤ القيس، الديوان، ص 363 - 364.
42. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط2 ، 1950 ، ج2، ص20.
43. الأعشى، الديوان، ص 92.
44. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي، ص 136.
45. الأعشى ، الديوان، ص 164.
46. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي، ص 137.
47. امرؤ القيس، الديوان، ص 22.
48. امرؤ القيس ، الديوان ، ص 46 . 47.
49. الفيفي، عبدالله، مفاتيح القصيدة الجاهلية(نحو رؤية نقدية جديدة عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا)، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 117، 2001م، ص 191.
50. الأبرص، عبيد، الديوان، ط1، دار صادر، بيروت، 1998، ص47.
51. العبسي، عنترة بن شدّاد، الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي ، ط2 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ص 62.

52. العبسي ، عنترة بن شداد ، ص 161.
53. المصدر نفسه ، ص 29 - 30.
54. الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص 371.
55. حسين، عبدالرزاق، علقمة حياته وشعره، ص73.
56. علقمة، الديوان، ص88 .
57. الشنفرى، الديوان، ص 27.
58. خليف، الديوان، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط2، دار المعارف، القاهرة،1966، ص229.

المصادر والمراجع

- الأبرص ، عبيد ، الديوان ،ط1، دار صادر ،بيروت ،1998 .
- الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط5 ، بيروت ،1963 .
- الأعشى ، ميمون بن قيس ، الديوان ، تحقيق محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة .
- امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة.
- البطل ، علي ، الصورة في الشعر العربي ، شركة الفجر العربي ، بيروت ، 1980 .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط2 ، 1980 .
- جمعة ، حسين ، الحيوان في الشعر الجاهلي ، ط1 ، دار رسلان للنشر و التوزيع ، سوريا ، 2010 .
- حسين ، طه ، حديث الأربعاء ، ط13 ، دار المعارف ، القاهرة .
- حسين ، عبد الرزاق ، علقمة حياته وشعره ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1986.
- الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- الربابعة ، موسى ، جماليات الأسلوب و التلقي ، ط1 ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر و التوزيع ، 2000 .
- زهير بن أبي سلمى ، شرح شعره ، ط1 ، دمشق ، 1981 .
- أبو سويلم ، أنور،الإبل في الشعر الجاهلي : دراسة في ضوء علم الميثولوجيا و النقد الحديث ، ط1 ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، 1983 .
- شلبي ، سعد إسماعيل ، الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، ط1 ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1977 .
- الشنفرى ، لامية العرب ، شرح و تحقيق محمد بديع شريف ، ط1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، يروت ، 1964 .
- الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلى ، المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ،ط6 ، دار المعارف ، القاهرة .
- طبانة ، بدوي ، معجم البلاغة العربية ، ط3 ، دار المنارة ، جدة ، 1988 .
- العبسي ، عنترة بن شداد ، الديوان ، تحقيق محمد سعيد مولوي ، ط2 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1983 .
- العسكري ، أبو هلال ، كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1986 .
- علقمة الفحل ، الديوان ، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربي ، حلب .

- عيد رجاء ، دراسة في لغة الشعر (رؤية نقدية) دار المعارف ، الإسكندرية .
- الفيفي ، عبد الله ، مفاتيح القصيدة الجاهلية (نحو رؤية نقدية جديدة) ، عبر المكتشفات الحديثة ،في الآرشاد و الميثولوجيا ، ط1 ، النادي الأدبي الثقافي، جده ، 2001 .
- القيسي ، نوري حمودي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ، 1970 .
- كعب بن زهير ، الديوان ، صنعة أبي سعيد السكري ، تحقيق حنا نصر الحتي ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1994 .
- ماسون ومكارثي ،جفري وسوزان ، عندما تبكي الفيلة " الحياة الانفعالية عند الحيوان ، ترجمة نهلة بيصون ، ط1 ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 1999 .
- المبيضين ، ماهر ، الظليم و مواضع وروده في القصيدة الجاهلية ، مجلة المنارة للبحوث و الدراسات ، مجلد (12) ، عدد (2) ، جامعة آل البيت ،2006 .
- المرزوقي ، مقدمة ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة ، 1951 .
- المهيرات ، رائد ، صورة الذئب في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، رسالة ماجستير ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية ، 2009.
- نوفل ، سيد ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1987 .
- النويهي ، محمد ، الشعر الجاهلي (منهج في دراسته و تقويمه) ، ط1 ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة .
- وهبة بن منبه ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1979.
- يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة، 1966 .